

سلسلة «دراسات أنثروبولوجية»

(٣)

التأصيل الإسلامي لعلم الإنسان

(الأنثروبولوجيا)

الدكتور زكي محمد إسماعيل

الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الرياض

١٤١٢هـ ١٩٩٢م

دار المطبوعات الجديدة

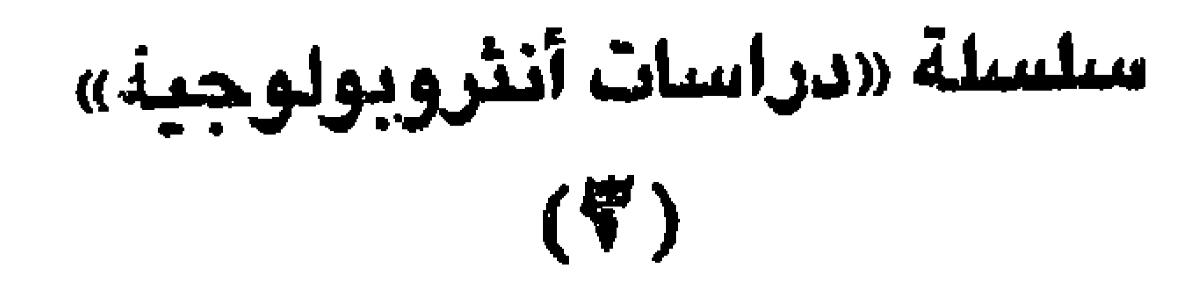
٥ شارع سان مارك . المنشية . ت: ٤٨٢٥٥٠٨ تلكس: ماتكس ٥٤٢٠٤

الإسكندرية جمهورية مصر العربية

اهداءات ٢٠٠١

ا.د. أحمد أبو زيد

أنثروبولوجي


سلسلة «دراسات أنثروبولوجية»
(٣)

التأصيل الإسلامي لعلم الإنسان

(الأنثروبولوجيا)

الدكتور زكي محمد إسماعيل
الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
الرياض

١٤١٢هـ ١٩٩٢م

دار المطبوعات الجديدة

٥ شارع سان مارك ، المنشية ، ت: ٤٨٢٥٥٠٨ تلكس: ماتكس ٥٤٢٠٤

الإسكندرية ، جمهورية مصر العربية

نسخة هدية لأستاذنا الجليل
الأستاذ الدكتور أحمد أبو زيد
مع خالص التحية والتقدير

بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة «دراسات أنثروبولوجية»

(٣)

التأصيل الإسلامي لعلم الإنسان

(الأنثروبولوجيا)

الدكتور زكي محمد إسماعيل

الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

كلية العلوم الاجتماعية - المركز الجامعي لخدمة المجتمع والتعليم المستمر ، مركز البحث العلمي

١٤١٢هـ ١٩٩٢م

دار المطبوعات الجديدة

٥ شارع سان مارك ، المنشية ، ت: ٤٨٢٥٥٠٨ تلكس: ماتكس ٥٤٢٠٤

الإسكندرية ، جمهورية مصر العربية

يعد علم الإنسان «الأنثروبولوجيا» أحدث العلوم الإنسانية بمفهومه الغربي الحديث، إذ لاتتجاوز دراساته بهذا المفهوم قرنا من الزمان، وإن كانت جذوره الأولى تمتد في التراث العربي الإسلامي إلى أكثر من ثمانية قرون على يد الرحالة من العلماء المسلمين الرواد كما سنشير بعد.

وكلمة أنثروبولوجي Anthropology مشتقة في لفظها الغربي من أصلين يونانيين أنثروبوس Anthropos أي «إنسان» و لوجوس Logos أي علم أو كلمة أو دراسة.

وقد يكون هناك لبس مابين علم الإنسان وغيره من العلوم الإنسانية Humanities أو Human Sciences والتي يدرس كل منهما فرعا خاصة من هذه العلوم كعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد والسياسة والجغرافيا البشرية والتاريخ، بيد أن علم الإنسان يختلف عن كل منهما من حيث منهجه في الدراسة، وموضوعه في المعالجة، ونظرته في التحليل والتفسير والتأويل، وشموليته في دراسة الإنسان ككل متكامل من جانبيه الفيزيقي من ناحية، والثقافي الاجتماعي من ناحية أخرى، ولهذا يعتبر هذا العلم أقرب العلوم الإنسانية صلة بالعلوم الطبيعية التجريبية كالتشريح والفيزياء والكيمياء الحيوية وعلم الحياة «البيولوجي» والطب، وعلم طبقات الأرض «الجيولوجي» ولهذا فإن أحد فرعي هذا العلم «علم الإنسان الفيزيقي Physical Anthropology» لازال يدرس حتى الآن في جامعات أوروبا وأمريكا في كليات العلوم والطب وكان يدرسه في الستينيات أحد علماء التشريح بجامعة الاسكندرية وذلك في معهد العلوم الاجتماعية.

ولعل أشهر التعاريف لمفهوم «علم الإنسان» ماذكره العالمان الأمريكيان رالف لينتون R. Linton وهيروسكوفتش Heroskovits على أنه: «دراسة الإنسان وأعماله».

ويرى جوزيف جرينبرج J.H.Greenberg أنه تبعا لأصل الكلمة وتاريخها فإنها أكثر الدراسات الأكاديمية شمولا في معالجتها للإنسان، هذا

الشمول يتمثل في اهتمام هذا العلم بدراسة الإنسان مطلقا من قيود الزمان والمكان. ولاتقتصر - كما كان يرى البعض في قصرها على دراسة ماسمى بالرجل البدائي Primitive Man فتلك نظرة لم يعد لها وجود في ساحة علم الإنسان المعاصر، وفي هذا يقول الأنثروبولوجي الأمريكي هيبل Hoebel إن علم الإنسان ينبغي له أن يدخل في مجاله بحق دراسة الإنسان على أي مستوى ثقافي سواء كان هذا المستوى بدائيا أم متحضرا، وينبغي أن يدخل في أبحاثه دراسة الإنسان في أي زمن، سواء كان هذا فيما قبل التاريخ أو في العصور التاريخية أو المعاصرة.

إن الأنثروبولوجيا يجب أن تنتهي إلى نتائج يستفاد منها في مشكلات المجتمع الحديث، ويجب عليها أن تضع مناهجها تحت تصرف العلوم الأخرى.

وإذا كان علم الإنسان يتعدى حدود الزمان والمكان في دراسته للمجتمع البشري، فإن منطقة نفوذه العلمية تتسع لتشمل مجالات متنوعة كاللغة والبناء الاجتماعي، وأنساق الثقافة، والتعبيرات الجمالية والمعتقدات والقرابة وسائر أنشطة الإنسان الثقافية والاجتماعية مما جعل بعض العلماء يطلقون عليه «علم طبائع الشعوب».

إن هذا الثراء والتنوع في تحديد مجال علم الإنسان دعا إلى أن يتفرع إلى عديد من العلوم شبه المستقلة يشترك كل علم منها مع أحد العلوم المستقلة الراسخة في دراسة نفس الموضوع الذي يهتم به العلم. مثال ذلك: الأنثروبولوجيا الاجتماية التي تتصل اتصالا وثيقا بعلم الاجتماع، والأنثروبولوجيا النفسية أو «الثقافة والشخصية»، والتي تتصل اتصالا وثيقا بعلم النفس، والأنثروبولوجيا التاريخية التي ترتبط ارتباطا عضويا بعلم الآثار القديمة.. الأركيولوجي، وهو العلم الذي يدرس حضارات المجتمعات الإنسانية في العصور القديمة وعصور ماقبل التاريخ عن طريق التنقيب وتحليل المعلومات المستنبطة ووصف الأدوات وتصنيفها مع التركيز على المعلومات، والأنثروبولوجيا اللغوية والتي إن ركزت

اهتمامها على دراسة لغات ولهجات الشعوب والقبائل شبه البدائية ومقارنتها ببعضها البعض إلا أنها تتصل بعلم اللغويات وتستعين به في مجال التحليل والتفسير والتأويل باستخدام أحدث أجهزة التقنية الحديثة، كما أن علم قياس الجسم الإنساني Anthropometsy والذي يهتم بدراسة هذه المقاييس ومقارنتها من حيث طول القامة والجمجمة والرأس والعيون والمخ للوصول إلى نتايج علمية يتصل اتصالا وثيقا بعلم الأحياء «البيولوجي» وبالجغرافيا البشرية.

إن من أهم أهداف علم الإنسان تفسير الطبيعة البشرية في شتى مظاهرها بدءا بالبدائيين فأشباههم ونهاية بالمتطورين، فهو في أساسه علم مقارن لأنواع العقليات وأنماط التفكير وأنساق العادات والمعتقدات، ومن ثم فإنه يدعو المؤمنين وبكل صراحة إلى تحقيق منهج الآية الكريمة: **﴿ياأيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾**(١).

وعليه فإن علم الإنسان يوجه دراساته لتكون بمثابة مرآة يشاهد فيها الإنسان المعاصر تاريخ حياته ونظمه وكيف تطورت من البسيط إلى المركب، سواء في بقايا تلك النظم التي تتحدث عن نظرة الإنسان إلى الكون والنفس والخلق أو في مقارنة القيم والعادات والمعايير والإجابة عن سؤال هام هو: هل اندثرت تلك القيم تماما أم مازالت آثارها ودلالاتها تظهر في حياتنا المعاصرة بصورة أو بأخرى؟

ولعل في دراسة الآثار الفرعونية والمسيحية والإسلامية في مصر مايلقى ظلالا - لى بعض أصول عاداتنا وقيمنا وموروثاتنا الشعبية.

وإذا كان علم الإنسان ينادي بضرورة دراسة الثقافة في علاقتها المتبادلة بالشخصية الفردية والجماعية أو القومية العامة للوصول إلى مزيد من هذا الفهم الواعي المستبصر، فإن القرآن الكريم دعا إلى هذا

---

١) سورة الحجرات ١٣

الاستبصار من خلال دراسة النفس في قوله تعالى ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ (١). وبنفس القدر وجه القرآن الكريم الإنسان للنظر والدراسة لاستجلاء بداية الخلق، ونشأة الحياة وتطور المجتمعات البشرية من خلال دراسة علمية واعية فالظن لايغني عن الحق شيئا وذلك في قوله تعالى: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة﴾(٢).

وعلى أية حال فإذا كان من أهم أهداف علم الإنسان أن يساعدنا على فهم أنفسنا من خلال دراستنا لثقافات الآخرين انطلاقا من القاعدة المنطقية «وبضدها تتمايز الأشياء» فذلك لنصل إلى إحساس عام وهام هو أن الناس في جوهرهم وحدة واحدة لاانفصام لها، وإذا شاء الله تعالى للبشر أن يكونوا شعوبا وقبائل وبطونا وأفخاذا وفصائل فليس ذلك للاختلا أو التفرقة والانفصام وإنما لتحقيق الأخوة الإنسانية في إطار التفاهم والسلام ﴿ولو شاء ربك لجعل النّاس أمّة واحدة ولايزالون مختلفين﴾(٣).

وارتكازا إلى هذا المفهوم فإن اختلاف القيم والعادات والمفاهيم ليس غايته الفصل، وإنما تأكيد التعاون والوصل، وليدرك الناس أقدار بعضهم البعض.

فالناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض -وإن لم يشعروا- خدم

إن الانتماء الثقافي حقيقة من حقائق الخلق جديرة بالدراسة والتسجيل والتقويم والتحليل، ويعد منهج المعايشة الميدانية أو الملاحظة بالمشاركة التي ينتهجها علم الإنسان في دراسته لاستجلاء القيم والعادات والتقاليد لمجموعة من المجموعات الشرية - يعد أنسب الطرق

---

١) سورة الذاريات ٢١

٢) سورة العنكبوت ٢٠

٣) سورة هودة ١١٨

العلمية المعاصرة التي تحقق للدعوة الإسلامية أهدافها وغاياتها من خلال دراسة الأنماط السلوكية للمدعوين، وثنيين كانوا أم كتابيين، موحدين أم ملحدين، وذلك لأن فهم الآخرين ودراسة قيمهم مفتاح التفاهم معهم والدعوة إليهم، على أسس من الحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وهو هدف يلتقي بمنهج الآية الكريمة: **﴿وكذلك جعلناكم أمّة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾**(١).

وإذا قال المفسرون بأن «وسطا» تعني خيارا عدولا، فإن هذا لايتم إلاّ من خلال شهادة العدل التي تقتضي الدراسة للمعرفة في أدق صورها واستجلاء آفاقها، يقول زهير:

هم وسط يرضى الأنام بحكمهم   إذا نزلت إحدى الليالي بمعظم

على أنه لايمكن القول بأن دراسة المجتمعات البشرية بمنهج علم الإنسان للوقوف على ثقافات الآخرين غاية في ذاتها، وإنما وسيلة لغاية أسمى هي إدراك طبيعة المساواة والتسامح بين البشر حيث لافضل لعربي على أعجمي ولا لابيض على أسود إلاّ في إطار العمل المخلص، والنوايا الطيبة، والسعي لخير الآخرين، وكل هذا يندرج في المفهوم القرآني تحت «التقوى» أي خشية الخالق والعمل بوحي من إرشاده وتوجيهه وهديه جل وعلا **﴿إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾**(٢). ومن خلال هذه المقدمة وفي إطارها نطرح التساؤل التالي موضوع بحثنا:

ما المقصود بالتأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية بعامة وعلم الإنسان بخاصة؟

في الواقع ان التأصيل الإسلامي للعلوم يعني عرض قضايا ونظريات العلوم الإنسانية على أصول الشريعة الإسلامية باعتبارها المعيار الذي

---

١) سورة البقرة ١٤٣.

٢) سورة الحجرات ١٣

يقوم هذه العلوم من حيث أسسها ومنطلقاتها، فالشريعة وضعت المبادىء العامة للعلاقات الإنسانية في عمومياتها، مثال ذلك ماتدعو إليه الشريعة من إرساء قيم العدالة والسلام والمساواة والتسامح والتدين والإخاء الإنساني وتماسك الأسرة وإرساء مفاهيم الحق والواجب، فإذا كان هناك من قضايا وأيديولوجيات العلوم الإنسانية مايناقض هذه المبادىء كالماركسية التي تعتمد أساسا على عبادة المادة وهدم الدين باعتباره - في منظورهم - أفيون الشعوب، أو البراجماتية التي تتخذ من النفعية المادية أو الذرائعية أساسا لمنطلقاتها ومقومتها، وجب عندئذ التصدي لمثل هذه الايديولوجيات بالنقاش والتحليل والتقويم ردا عليها، ودرءا لها، وإظهارا لفساد أو تضليل منطلقاتها ومسلماتها.

إن أهم تحد يواجه تأصيل العلوم الإنسانية تأصيلا إسلاميا هو دفاع النظرة التأصيلية عن عالم غيبي هو صنو لعالم الشهادة، هو درء لأيديولوجية علمانية تفصل الدين عن الدنيا، هو الايمان بالخالق الأعظم جل وعلا في مواجهة نظرة إلحادية لاتؤمن بالله وتنكر الأديان.

إن التأصيل الإسلامي للعلوم الإنسانية والاجتماعية إنما هو جهد يبذل لخدمة اتجاه قيمي أخلاقي، وهذا نقيض مايهدف إليه معظم علماء الغرب والشرق معا إذ يرون أن العلم محايد لاعلاقة له بالإيمان ولا بالأخلاقيات، هذا في نفس الوقت الذي تلون فيه النظرية، ويغلف الاتجاه، وتمحور المبادىء طبقا لأيديولوجية الدولة ذاتها.

ومن الأهمية الإشارة إلى أن عملية التأصيل وهي تدعو إلى اتباع أسس المنهج الإسلامي، فهي بالتالي تضع المعايير الأساسية للمنهج العلمي التجريبي الصحيح كما أرساه ونادى به العلماء المسلمون الرواد أمثال البيروني والحسن بن الهيثم وابن خلدون وغيرهم وذلك قبل أن ينادي بذلك أساتذة علم المناهج المعاصرون بأربعة عشر قرنا من خلال القواعد الآتية:

١ - يطرح الإسلام جانبا أية معرفة غير يقينية فهو يرفض الظن تماما.
واليقين نوعان: يقين الوحي الإلهي، ويتضمن غاية الإعجاز ما اكتشف ومالم يكتشف بعد من حقائق الآيات الالهية، وقد حثنا الإسلام على النظر في سنن الله الكونية لاكتشاف قوانينها ومحاولة تحليلها وتفسيرها تفسيرا علميا قائما على الملاحظة والتجربة، وهو ما اتبعه العلماء المسلمون الرواد، الأمر الذي جعلهم يبدعون المناهج العلمية التجريبية يوم كان الغرب يعيش في جهالة بعيدا كل البعد عن هذا التقدم العلمي الذي رفعت لواءه الحضارة الإسلامية.

٢ - الإسلام يدعو إلى العلم والأخذ بأسبابه، وطرق كل أبوابه: **﴿قلّ هل يستوي الّذين يعلمون والذين لايعلمون﴾**(١) **﴿اقرأ وربك الأكرم ۞ الّذي علم بالقلم ۞ علم الإنسان مالم يعلم﴾**(٢).
والعلم في الإسلام مفهوم شامل لايقتصر على العلم الشرعي وإنما يتجاوزه إلى سائر فنون العلوم التجريبية التي تهدف إلى اكتشاف سنن الكون، أو قوانين الطبيعة التي أحكم الله صنعها، وأبدع بناءها: **﴿أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض﴾**(٣) وفي آية أخرى **﴿أو لم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيّناها ومالها من فروج﴾**(٤).

٣ - يحث الإسلام على البحث عن كل علم نافع، والواقع أن صفة «نافع» هنا تنسحب على التطبيق للنظرية العلمية إذ ليس هناك علم غير نافع، فالعلم أيا كانت قرائنه التي يصل إليها الإنسان بالمنهج العلمي السليم

---

١) سورة الزمر ٩.
٢) سورة العلق ٣ - ٥.
٣) سورة الأعراف ١٨٥.
٤) سورة ق ٦.

إنما هو علم نافع، ولكن إذا استخدمت قوانينه فيما يضر البشرية، قيل هنا إن التطبيق لقوانين العلم تطبيق ضار، وهنا يختلف توظيف العلم بين ضار ونافع، فقوانين الذرة التي استخدمت في اختراع قنبلتها المدمرة، كان تطبيقها شيئا مفزعا، ولكن حين وظفت في العلاج والتشييد والتعمير كان التطبيق جيدا ومفيدا للبشرية، وهذا هو مايدعو إليه الإسلام ويحث عليه ويهيب بالمسلمين اتباعه، وحين وظفت دراسات علم الإنسان ومناهجه على يد خبراء المستعمرات الذين كانوا من علماء الإنسان في توطين الاستعمار وامتصاص دماء الشعوب الفقيرة، كان ذلك تطبيقا سيئا، وذلك بعكس مايهدف إليه علماء الأنسان اليوم من توظيف دراساتهم في مجالات التنمية والتعمير والتشييد من ناحية، و في مجال الدعوة الإسلامية وانتشارها على أسس علمية سليمة من ناحية أخرى.

وإذا كان ذلك تفسيرا للمقصود بالتأصيل الإسلامي للعلوم الإنسانية، فإن مجال التأصيل في علم الإنسان وأهدافه ومجالاته سواء في الدعوة الإسلامية، أو في مجال التنمية في العالم الإسلامي، يستحق منا عرضا مفصلا يجلي هذه الحقائق ويوضح هذه القضايا على أساس أن الإسلام يرفض فكرة العلمانية التي تنادي بفصل العلم عن الدين، فالإسلام عقيدة في العلم وعلم في العقيدة، يمزج بين الدين وسائر شؤون الحياة، من حيث الكسب والسعي في مناكبها والأكل من الرزق الحلال، وبهذا فهو يوجه ويرشد للنظر في ملكوت الله وسننه الكونية والإنسانية، وعليه فالإسلام لايفرق بين سلطة زمنية أو دينية، مهنة معيشية أو عقيدية، بمعنى أن المسلم في شؤون حياته التي يستقيم فيها كما أمر هو رجل دين، كما أنه فقيه في أمور الشريعة بقدر ما أوتي من علم بها، ودراسة لها، وحرص على فروضها وواجباتها، أيا كانت وظيفته المهنية، وطبيعة حياته المعيشية، الامر الذي أتاح لعديد من المتخصصين في الهندسة أو الطب أو العلوم التجريبية

والإنسانية أن ينبغوا في علوم الشريعة بقدر دراستهم لها والتفقه في علومها، والخروج بتفسيرات غير تقليدية أظهرت مدى الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة طبقا لأحدث ماتوصل إليه العلم الحديث من حقائق ونظريات في هذا المجال.

ولقد كانت كلمة «عالم» في معناها التقليدي سابقا تعنى العالم بأمور الشريعة الإسلامية.

وإذا كان التأصيل الإسلامي للعلوم الإنسانية يعني عرض حقائق ونظريات هذه العلوم على الشريعة الإسلامية لتقويمها لهذه النظريات، وإظهار كلمتها فيها، فإن هذا لايعني أن نقحم الإسلام في أمور تتصل بجزئيات العلم وفروعه، إلاّ إذا كانت هناك إشارات من القرآن الكريم والسنة المطهرة إلى هذا طبقا لما أسفر عنه العلم الحديث، والذي يقاس صدقه بمدى مطابقته للإشارات الإلهية. لا العكس، فما كان من عند الله فهو الصدق المطلق، وماخالفه فهو ماينبغي أن يعاد النظر فيه، والتوفر على تعديل منهج البحث المستخدم أداة علمية به.

إن المعارضين لعلاقة العلم بالدين الإسلامي يقولون إن القرآن ليس كتابا في العلوم التجريبية أو الإنسانية، وينبغي أن ننزهه عن العلم حصيلة أفكار البشر، التي تصدق وتخطىء، وهذا صحيح ولكنهم نسوا أن القرآن - وإن لم يكن كتاب علم - إلاّ أنه دعا إلى تحصيله والتبحر فيه، واجتلاء سنن الله تعالى في الكون، سمائه وأرضه، وسائر خلقه، بعضها قد خلا، وبعضها ماثل أمام أعيننا: **﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾**(١). ويقول جل وعلا: **﴿سنّة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد**

---

١) العنكبوت آية رقم ٢٠.

لسنّة الله تبديلا﴾(١).

ماذا ينبغي اذن ؟

إن التأصيل الإسلامي للأنثروبولوجيا ينبغي أن يكون في ربط العلم بالثقافة الإسلامية، بحثا ميدانيا، عرضا وشرحا، تفسيرا وتحليلا وتمثيلا، فللأسف كان كل أو جل مايساق من أمثلة ميدانية تزخر بها كتب علم الإنسان مستمدا من الثقافة غير العربية أو الأسلامية.

صحيح أنه في الآونة الأخيرة بدأت تنتشر البحوث الميدانية في المجتمعات العربية والأسلامية تقليدية أم حضرية ولكنها مقطوعة الصلة بالثقافة الإسلامية في مجال التحليل والتقويم والتفسير.

وإذا كان لمجتمعاتنا الإسلامية أن تستورد التكنولوجيا بأنواعها المختلفة من الغرب والشرق معا، فلا ينبغي أن تستورد القيم والمفاهيم معا، فلا ينبغي أن تستورد القيم والمفاهيم، العقائد والنظريات لتدور في فلكها، وتفسر وتقوم من خلالها، فلكل مجتمع "ثقافته" التي ينبغي أن تكون إطاره المرجعي في التفسير والتقويم مهما كان فعل الانتشار الثقافي والتغير الحضاري، ولهذا أخطأ علماء الأنثروبولوجيا الغربيون في تقويمهم للقيم والعادات والتقاليد والمفاهيم الإسلامية لاختلاف هذه الأنشطة الثقافية عن مثيلاتها في الغرب اليميني أو الشرق الشيوعي.

وعلى أية حال، ومن خلال هذا العرض التأصيلي نسوق بعض الأمثلة التي يمكن أن يدور حولها، ويتحرك في فلكها التأصيل الإسلامي لعلم الإنسان، من خلال شرح الأساتذة أو محتويات الكتب، أو الاتجاه البحثي الميداني.

أمثلة لقضايا التأصيل :

يقول الله تعالى : ﴿ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر

---

١) الفتح آية رقم ٢٣.

ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلا ﴾(١).

إن تفسير الآية الكريمة لاينبغي أن يقف عند التفسير التقليدي الذي يرى أن تكريم وتفضيل بني آدم من الخالق جل وعلا إنما يرجع إلى خلقه لهم «على أكمل الهيئات وأحسنها، فإن الإنسان يمشي منتصبا على رجليه، ويأكل بيديه، وغيره من الحيوانات يمشي على أربع ويأكل بفمه»(٢). وإنما ينبغي أن نرجع إلى أهم ماتوصلت إليه أبحاث الأنثروبولوجيا الفيزيقية «الجسمية» في هذا الموضوع والتي تبرز بجلاء علمى تجريبي مظاهر هذا التكريم والتفضيل حيث يحتل الإنسان وضعا فريدا في المملكة الحيوانية، فهو إن اتفق مع الحيوان في اشباع دوافعه الفطرية كالجوع والعطش والنوع ليعيش حياته، وفي الدافع الجنسي والتوالد ليحفظ بقاءه، إلا أنه لايمتاز فحسب عن تلك المملكة بما وهبه الله تعالى من عقل يفكر، وقلب يؤمن، وفكر يبدع، وإنما يمتاز عنها كذلك بالبناء العضوي والتكوين الجسدي، ومن خلال التركيب المخي الفردي الذي يمتاز بتعقيد معين ودقة بالغة في تركيبه العضوي، وكذلك بالوقوف والمشي منتصبا وفي وضع معتدل، ومايتبع ذلك من تركيب مميز لقدم الإنسان يساعده على هذا الاعتدال، وترتب على هذا تحرر اليدين وإمكان استخدامهما في العمل وبالتالي اكتساب مهارات يدوية أبدعت أدق وسائل البناء والصناعات اليدوية التقليدية والحضارية معا، كما وهب الله تعالى الإنسان سلسلة فقرية مرنة تمكنه من الاستقامة والانثناء معا بفضل طواعيتها ومرونتها، كما يمتاز الإنسان بثنائية الإبصار حيث يمكنه أن يشاهد الرؤية المجسمة ثلاثية الأبعاد، والإنسان هو وحده الذي يعيش طوال حياته في مجتمع منظم متماسك.

وإذا كانت بعض القردة العليا Apes كالغوريلا والشمبانزي تعيش في

---

١) الإسراء آية رقم ٧٠.

٢) راجع «أضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن» لمحمد الأمين الشنقيطي، الجزء الثالث، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية - الرياض ١٤٠٣هـ - ٦١٥.

جماعات على درجة معينة من التنظيم، ويقوم بينها نوع من التعاون في الحياة اليومية، إلا أن المجتمع البشري ينفرد بوجود النظم الاجتماعية الواضحة المعالم، والتي ينتظم بمقتضاها سلوك الأفراد والجماعات التي تدخل في تكوينه البنائي كنظم الزواج والقرابة والاقتصاد والدين، وفوق كل هذا فالإنسان وحده صاحب التراث الثقافي الطويل والذي يتمثل في أبسط صوره في العادات والقيم والتقاليد الموروثة بالإضافة إلى الفنون والصناعات المختلفة التي مهما بلغ شأنها من البساطة إلا أنها تتطلب قدرا معينا من المهارات والذكاء والقدرة على الابتكار لاتتوافر لبقية الرئيسات Primates وهي أعلى رتب الحيوانات، وتلك أمور كلها تتآلف في كل متماسك يفسر معنى التكريم والتفضيل للإنسان في الآية الكريمة.

التأصيل ونظرية التطور:

لازالت نظرية الاختيار الطبيعي Natural Selection أو الانتقاء الاختياري بزعامة دارون Ch. Daruin تساق في كتب الأنثروبولوجيا الفيزيقية «علم الإنسان الطبيعي» دون أن تقوم دينيا بعامة، وإسلاميا بخاصة، رغم أن تلاميذ دارون أنفسهم أثبتوا تهافتها وزيفها تماما. وملخص النظرية يشير إلى تفرع الإنسان عن غيره من الفصائل الحيوانية، وأن الفضل في نشأة مراكز اللغة لديه يرجع إلى ما أحيط به من ظروف اقتصادية واجتماعية ودفاعية أحاطت به منذ نشأته بأن جعلته مثلا يضطر إلى الوقوف على رجلين، بعد أن كان يمشي على أربع أثناء دفاعه عن نفسه مما جعل قامته تعتدل رويدا رويدا حتى استوى الجزء الأعلى من جسمه مع أطرافه السفلى، وبذلك ضعفت لديه عادة المشي على أربع حتى انقرضت، وبالتالي لم يعد بحاجة لاستخدام فكه وأسنانه دفاعا عن نفسه، وإنما استخدم اليد بديلا عن ذلك، مما ترتب على هذا - كما يزعم غلاة التطوريين - ضمور عضلات وعظام الصدغ مما أتاح مجالا لنمو الجمجمة وزيادة حجمها وبالتالي ازدياد مجال النمو للمخ من حيث حجمه، وبذلك نشأت

مراكز جديدة فيه.

إن هذه النظرية لم تعد تحتاج - من المؤمنين بخلق الله للإنسان بشرا سويا - أن يدحضوها ويثبتوا تهافتها ومدى الزيف فيها إذ سبقهم إلى ذلك تلاميذ دارون نفسه حيث أثبتوا بالتجربة فساد هذا الزعم الذي لايرتكز على أية حقيقة علمية، وانتهت أبحاثهم إلى أن تعطيل الفك والأسنان - وإن نشأ عنه اتساع في الجمجمة إلا أنه لايترتب عليه إطلاقا اتساع في المخ أو اختلاف في تعاريجه وشكل تكوينه، الأمر الذي يهدم رأي التطوريين الارتقائيين الداروينيين في زعمهم حول تطور الإنسان عن فصائل حيوانية، وبهذا يعمق الإيمان بما أخبرنا به القرآن الكريم من أن الله تعالى خلق الإنسان خلقا مستقلا وجعله خليفته في الأرض، قال تعالى: **﴿ثم كان علقة فخلق فسوّى﴾**(١) **﴿الذي خلقك فسواك فعدلك * في أيّ صورة ما شاء ركّبك﴾** (٢) وقال جل شأنه: **﴿ونفس وما سوّاها * فألهمها فجورها وتقواها﴾**(٣) وفي خطابه جل وعلا للملائكة حكاية عن آدم: **﴿فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾**(٤).

وعليه فإذا تحدث علماء الإنسان عن التطور وأطوار الكون فإن عليهم أن يشيروا - في مجال التأصيل الإسلامي للعلم - إلى قوله تعالى على لسان نوح وهو يذكر قومه بقوله لهم: **﴿مالكم لاترجون لله وقارا * وقد خلقكم أطوارا﴾**(٥). والأطوار هنا تنسحب على معان شتى. تنسحب على خلق الأجنة في بطون الأمهات طورا من بعد طور من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة، وقد يراد بها تدرج الإنسان من بعد ذلك من طور الطفولة إلى طور الصبا فالشباب فالرجولة فالشيخوخة، كما قد يراد بها تدرج الجنس البشري من الإنسان القديم فالوسيط فالحديث فالمعاصر، من

---

١) القيامة ٣٨.

٢) الانفطار ٧، ٨.

٣) الشمس ٧.

٤) الحجر ٢٩، وكذلك ص ٧٢.

٥) نوح ١٤.

حيث القوة والشكل والطول واللون، ونتائج الاختلاط في الهجرة والحرب والتزاوج، وما أسفر عنه ذلك إنما يعد - بمعنى ما - نوعا من الأطوار في خلق الله للإنسان.

التطور مفهوم قرآني :

وانطلاقا من هذا المفهوم فإن التطور والأطوار مفهوم قرآني أصيل يدعو إلى الايمان، يزيده ويعمقه، لايشرخه أو يمحقه.

إذا أردنا أن ندرس التطور دراسة علمية من خلال بقايا وهياكل الأحياء المنقرضة في التاريخ الجيولوجي الغابر، فتلك طريقة علمية وحيدة يمكننا أن تثبت وتؤكد أن شكلا ما تغير وتطور من عصر قديم إلى عصر أحدث طبقا لسنن الله تعالى في الكون جغرافية كانت أم تاريخية أم طبيعية.

وإذا كان من أهم أهداف الأنثروبولوجيا من خلال بحوثها الميدانية عبر كافة المجتمعات تقليدية كانت أم حضرية هو إثبات وحدة الجنس البشري الذي ينبغي أن يتعارف ويتآلف، وأن يسوده التسامح لا التعصب، التقارب لا التباعد، الحب لا الكراهية، السلم لا الحرب، فإن القرآن الكريم دعا إلى هذا منذ أكثر من أربعة عشر قرنا في قوله تعالى: ﴿**ياأيها النّاس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا**﴾(١).

لقد أكدت أبحاث علم الإنسان أنه مهما تمايزت ألوان وأشكال وجغرافية وتاريخ وسلالات البشر إلاّ أنهم يتفقون في أن لكل جماعة أو مجتمع "ثقافة" تنتظم قيمهم وعاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم ومعارفهم وأدواتهم ورموزهم التي تميزهم عن غيرهم، وأن هذه الثقافات لاتنبع أساسا من لون أو عنصر أو سلالة أو تفوق عقلي، وإنما من طبيعة المكان والزمان وتفاعلهما مع أفراد المجتمع ذاته وتاريخه الموروث وحاضره

---

١) الحجرات ١٣.

المعاش بعيدا عن أي مفهوم عنصري أو تفوق سلالي، أو امتياز فطري في الذكاء أو المواهب والقدرات، ويؤكد هذا حديث الرسول - عليه الصلاة والسلام - : «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه»(١).

أنماط المجتمعات بين المفهومين العربي والمعاصر :

وإذا قسم علماء الإنسان المعاصرون المجتمعات إلى بدائية وشبه بدائية وقبلية وريفية وحضرية فإن العرب درجوا على تقسيمها - من حيث كثافتها - إلى الشعب والقبيلة والعمارة والبطن والفخذ والفصيلة، ولهذا فهم يقولون إن خزيمة شعب، وقريش عمارة، وقصي بطن، وهاشم فخذ، والعباس فصيلة، وذلك على أساس أن الشعب يجمع القبائل ، والقبيلة تجمع العمائر، والعمارة تجمع البطون، والبطن يجمع الأفخاذ، والفخذ يجمع الفصائل، وقد يطلقون بعض هذه المسميات على البعض الآخر كأن يقولوا قبيلة قريش. ولاشك أنه تقسيم دقيق يترجم عن طبيعة البيئة التي عايشها العرب قديما.

ورغم أن التفاخر بالأنساب والتباهي بالألقاب والتنابذ بها كان من أهم عادات وتقاليد العرب قبل الإسلام، إلا أن الإسلام دعاهم إلى نبذ التعصب، ورفض التطاول على الآخرين ونادى بأن الفخر لايكون إلا بتقوى الله تعالى، وصدق الايمان ورسوخ اليقين قال تعالى ﴿إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾(٢).

منهج علم الإنسان والدعوة الإسلامية:

. أصبح المنهج الأنثروبولوجي الذي يعتمد أساسا على اهتمام الباحثين بمعايشة مجتمع البحث فترة لاتقل عن عام لملاحظة قيم وعادات وتقاليد المجتمع بعامة والسمات الخاصة بموضوع البحث بالذات من خلال

---

١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج ٢ ص ٢٧٥.

٢) الحجرات ١٣.

الكل «الثقافي» لهذا المجتمع بخاصة وبما يعرف في الدراسات المنهجية للأنثروبولوجيا «بالملاحظة بطريق المشاركة» أو «المعايشة الميدانية Participation by Observation وهي ملاحظة ذات ضوابط علمية خاصة تفرض تعلم الباحث لغة المجتمع واكتساب ثقته وتبديد الشكوك التي قد تثار حوله، وتسجيل كل مايتصل بسمات وأنماط ثقافة هذا المجتمع. نقول إن هذا المنهج - والذي استخدم في نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين - على يد المبشرين وعلماء الإنسان الغربيين لنشر المسيحية في أفريقيا وآسيا وغيرهما أصبح الآن من أهم الأمور التي ينبغي أن يوظفها الدعاة المسلمون في الدعوة إلى الإسلام لابين غير المسلمين فحسب وإنما بين المسلمين أنفسهم الذين تنتشر بينهم القيم والعادات والتقاليد والموروثات التي تتصل بالإسلام كالدعوة لغير الله، ولطم الخدود وشق الجيوب تعبيرا عن الحزن، والتداوي بالأحجبة ... إلى غير ذلك من البدع والخرافات، وعليه فإن أسلوب الدعوة اليوم أصبح يختلف باختلاف البناء الاجتماعي الثقافي لمجتمع الدعوة، أي من حيث مستوى التحضر، ونوع الفكر، وطبيعة المعرفة، وسمات الثقافة، ومدى التقبل للحجة المقنعة، وتحديد خطة التفاهم نفسها، ونوعية الاتصالات بمن ستوجه إليهم الدعوة، لاسيما وقد غزت المجتمع الدولي ثورة الاتصالات بما تحمل من مبادىء وقيم ومعتقدات وغزو فكري سريع المدى، مما يحتم الاستفادة التامة من منهج علم الإنسان الميداني في دراسة المجتمعات دراسة واعية قبل توجيه الدعوة إليها أو تصحيح مفاهيم الإسلام السمحة في ربوعها، وتبصيرهم الواعي بحقيقة الاسلام بعيدا عن البدع والخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان، الأمر الذي يتطلب إعدادا واعيا للداعية فكريا وثقافيا ودينيا وأخلاقيا، وتبصيره بمنهج البحث الأنثروبولوجي كأداة هامة لنجاحه في مجال الدعوه بالحكمة والموعظة الحسنة من ناحية أخرى

وقد يقال إن الداعية مطبوع لامصنوع أي أن قوة إيمانه وبرهان حجته ومدى تأثيره في نفوس مخاطبيه أمور تكفي لتحقيق الغاية وبلوغ الهداية، ولاتحتاج إلى إعداد أو تعليم خاص يستدعي إقامة المعاهد أو إنشاء البرامج.

إذا كان هذا صحيحا في العصور السالفة في فجر الدعوة وربيعها حيث كانت التربية الإسلامية الهادفة هي غاية المسلم من مهده إلى لحده، وعلى هذا الأساس دخل البلغار الإسلام على يد التجار المسلمين، والهنود عن طريق التجار والعلماء والرحالة العرب، وبفضل هؤلاء وهؤلاء كان انتشار الإسلام لدى المغول وفي أندونيسيا والفلبين وجنوب شرقي آسيا بصفة عامة.

أما اليوم فقد اختلفت الصورة تماما أمام دعوات التبشير المكثفة بشتى أساليب العصر مقروءة ومسموعة ومرئية عبر أقمار صناعية. مما يحتاج إلى استخدام الوسائل المنهجية العلمية في الدعوة الإسلامية والوعظ والإرشاد والتذكير، واعتبار «ثقافة» المجتمع ودراستها دراسة مركزة في كافة أبعادها هي نقطة الانطلاق ومحور الارتكاز في تحديد أسلوب الدعوة ذاته، وطبيعة منطقه، وأسلوب توجيهه بحيث لايعتمد على النبرة الخطابية، وإنما المخاطبة العقلية أولا، فالوجدانية ثانيا، فالإقناع المنشود أخيرا.

إن على علماء الإنسان المسلمين عند تحليلهم للسلوك لاجتماعي للمسلم ألا ينطلقوا في ذلك من منظور الربح أو الخسارة الفردي الذي يكتسبه في سجله الشخصي فحسب، وإنما ينبغي أن يحلل السلوك مقوما حسب الفائدة أو الضرر بالنسبة للمنظمة الاجتماعية التي هو فرد فيها، فالإسلام أمر بالتعاون والتضامن والتكافل: «ما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط»، بل إن الإسلام جعل الإيثار من أهم الفضائل التي يتصف بها

المسلم فقال تعالى: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾(١). كما أن على علماء الإنسان المسلمين في مجال التحليل لدراساتهم الميدانية في المجتمع الإسلامي أن يشيروا إلى الخلفية الإسلامية من مبادىء وقيم ومثل كأطر مرجعية لتحليلاتهم العلمية.

وإذا كان المسلم جزءا أساسيا في المجتمع الذي ينتمي إليه ينبغي أن يهتم بقيمه وثقافته، وألا ينسلخ منها بعكس المواطن الغربي الذي ينظر إليه كفرد حر له أن يحقق حريته إن لم يكن في كل أبعادها ففي معظم تلك الأبعاد، ومن هنا كان التقويم الجائر لعلماء الإنسان الغربيين في تحليلهم وتقويم دراساتهم في المجتمع الإسلامي حيث ادعوا بأن المرأة مسلوبة الحقوق في هذا المجتمع أو في نظرتهم الجائرة للمجتمع الإسلامي الذي يحرم لحم الخنزير مع أنهم يقولون إن هناك حيوانات أخرى محرمة ونجسة. وحتى عهد قريب كان ذلك موضوع جدل علمي في مجلة «الأنثروبولوجيا المعاصرة» Current Anthropology، إذا أصبح هذا التحريم عندهم موضوع رسوم هزلية، كاريكاتيرية وتهكم، بل أصبح هذا التحريم عندهم رمزا يفصل بين العالم الغربي (آكل الخنازير) والعالم الإسلامي (الذي لايأكل الخنازير).

لهذا كان على علماء الإنسان المسلمين أن يوضحوا حقائق هذه الأمور وأهميتها مسترشدين بعلماء الشريعة الإسلامية ومفاهيمها، ونظرة الإسلام الذي يضع الحد الأمثل بين الانضباط والتحلل، الحرية والفوضى، الحلال والحرام، المسموح والممنوع، شمولية الحكم وخصوصية التطبيق، فإذا كان الصيام فريضة عامة، فليس كذلك بالنسبة للمسافر والمريض وغير القادر بضوابط خاصة.

لقد أدرك هذا بوعي وبصيرة الرئيس الأمريكي جورج بوش في حرب الخليج حين وعى ضباطه ونصح جنوده بضرورة احترام وتقدير معطيات

---

١) الحشر ٩

الثقافة الإسلامية في المملكة العربية السعودية، بل إن المتحدث الأمريكي في وقائع الحرب لم يكن يظهر في قناة التلفزيون الأمريكية إلاّ وخلفه العلم السعودي رمزا للثقافة الإسلامية، كما أدرك القادة والجنود الفرنسيون أن لقيام حفلاتهم في أرض إسلامية حدودا وقيودا لاتتعدى أو تتجاوز رضوا بذلك أم أبوا، غضبوا أم لم يغضبوا، مادامت ثقافتهم تباشر على أرضهم وفي ربوع وطنهم حسبما يشاءون هم لاغيرهم.

جهود الرحالة المسلمين الرواد في الدراسات الوصفية :

إذا كانت الدراسات الأنثروبولوجية المعاصرة تعتمد في دراساتها الميدانية على المادة الأثنوجرافية التي تحمل في مفهومها وصف الشعوب من حيث «ثقافتها الكلية» عاداتها وتقاليدها وأنماط سلوكها ومعارفها وشعائرها وفنونها وصفا تسجيليا غير تحليلي وعلى المادة الأثنولوجية التي تعتمد على دراسة الشعوب والحضارات دراسة تحليلية تاريخية مقارنة تشمل أصول الحضارات والمناطق الثقافية وهجرة الثقافة وانتشارها ومايصحب ذلك من تغير وتكيف ثقافي، فإن المستقرىء المنصف لجهود الرواد من العلماء الرحالة المسلمين لايقف فقط على رصيد حي وعبقري لهذه الدراسات الرائدة الراشدة فحسب وإنما سيلاحظ الفرق الكبير بين هذه الجهود المبكرة، بمنهج البحث الميداني الرائد والذي تجاوز مجرد الملاحظة المعيشية إلى الحياة في المجتمعات بكل أبعادها وبين جهود الانثروبولوجيين المحدثين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر والتي لم تتعد أن تكون دراسات ظنية أطلق عليها دراسات ذوي الكراسي المريحة أو دراسات «علماء المكتب» والتي اعتمدت على التاريخ الظني والتحليلات الفلسفية.

ســياق مقارن :

ويعد كتاب «الغصن الذهبي» لجيمس فريزر من أوضح الأمثلة على هذه الدراسات المكتبية ويتألف من اثني عشر مجلدا تجاوز آلاف الصفحات وهو مليء بالعديد من الأساطير والروايات في مختلف المجتمعات، وحين سئل عما إذا كان قد ذهب إلى هذه المجتمعات أو رآها أجاب ساخرا وبحدة «أعوذ بالله» الأمر الذي جعل كتاباته مزيجا من المعلومات الاثنوجرافية الجزئية التي لاتخضع لأي ضابط أو مبدأ وإن غلفها بفكره المنطقي ليردها إلى شيء ما من التماسك والوحدة مما جعل عالمة الإنسان الشهيرة «روث بندكت» تصف الكتاب بأنه يجمع أشتاتا من السلوك والتصرفات المنتقاة من كل الثقافات برغم مابينها من تباين ومفارقات وتناقضات محاولا أن يمزج بينها ليخرج في النهاية مسخا مشوها، وصفته بأن عينه اليمنى من فيجي واليسرى من أوروبا وإحدى ساقيه من «تييرا» والساق الأخرى من «تاهيتي» ويصدق هذا على كتابات كل من «تايلور» و «مورجان» و «باخوفين» .. وغيرهم من ذوي الكراســـي المريـحة Arm-Chair Anthropologists أو علماء المكتب كما يدعوهم الفرنسيون Savants du Bureau.

ما أبعد الفرق بين هذه الكتابات المغرقة في الخيال والبعد عن الواقع وبين كتابات الرحالة الرواد من المسلمين الذين استجابوا لتوجيه الإسلام بالرحلة والسفر لطلب العلم والتفقه في الدين واستجلاء سنن الله في الكون وإدراك أن من هذه الرحلات ماهو مفروض في الإسلام كرحلة الحج لمن استطاع إليه سبيلا· لهذا كانت كتاباتهم قمة في الفكر الأنثوجرافي الوصفي الميداني الدقيق، ويمثل هذا الاتجاه: المقدسي، والإدريسي، والبيروني، وابن خرداذبه، وابن جبير، وابن بطوطه، وأحمد بن فضلان، والحافظ بن عسكر، وابن خلدون وغيرهم

تصنيف اتجاهات الرحالة المسلمين:

يميز العلماء ثلاثة اتجاهات في مسلك الأثنوجرافيين المسلمين من الرحالة الرواد:

الاتجاه الأول - يهتم الرحالة من خلاله بجمع المادة الوصفية من عديد من أقطار العالم الإسلامي ويمثل هذا الاتجاه كتابات الاصطخرى وابن حوقل والمقدسي وابن جبير وابن بطوطه وابن خلدون.

الاتجاه الثاني - يركز فيه الرحالة على وصف قطر واحد توفر على دراسته كالهمذاني في كتابه «صفة جزيرة العرب» والبيروني الذي تخصص في وصف الهند عبر كتابه الشهير «تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولة للعقل أو مرذولة» وأحمد بن فضلان في وصفه للصقالبة من خلال رسالته في وصف الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة كمنطقة ثقافية متشابهة.

أما الاتجاه الثالث الأخير - فيظهر في المعاجم والموسوعات الأثنوجرافية والجغرافية مثل كتاب «معجم البلدان» لياقوت الحموي و «نهاية الأرب» للنويري و «صبح الأعشى» للقلقشندي و «مسالك الأبصار» لابن فضل الله العمري، وهي موسوعات ومعاجم تهتم بوصف البلدان وذكر تواريخها وأحوالها وعاداتها وأعرافها ونظمها وشؤون عمرانها.

المقدسي وجهوده الرائدة في الوصف الأثنوجرافي:

يمثل المقدسي (أبو عبدالله محمد بن أبي بكر البناء) النموذج المثالي للرحالة الأثنوجرافي في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) والذي يكتب عن خبرة ميدانية ومشاهدات عيانية، يتجلى هذا في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم» والذي يقول إن مصادره في الكتاب انتظمت ثلاثة أقسام «أحدها ماعايناه، والثاني ماسمعناه من الثقاة، والثالث ماوجدناه في الكتب المصنفة في هذا الباب وغيره».

وتلك هي المصادر الأساسية التي يعتمد عليها الباحث الميداني حاليا في دراسته لمجتمع ما دراسة أنثروبولوجية حقلية.

وإذا كان من واجب الباحث الأنثروبولوجي في دراسته للمجتمع أن يختلط به ويأخذ دورا فيه ليكون مألوفا لديه فقد كان المقدسي إماما في هذا المجال إذ يقول: «لقد سميت بستة وثلاثين اسما، دعيت وخوطبت بها مثل مقدسي وفلسطيني ومصري ومغربي وخراساني، وفقيه وصوفي وولي وعابد وزاهد وسياح ووراق .. وغير ذلك، لاختلاف البلدان التي حللتها، وكثرة المواضع التي دخلتها، ثم يؤكد أنه مالحق بالمسافر الرحالة الباحث أمر إلاّ ولحق به غير ركوب الكبيرة أي المعصية التي تعد من الكبائر فيقول: «لقد تفقهت وتأدبت، وتزهدت وتعبدت، وفقهت وأدبت، وخطبت على المنابر، وأذنت على المنائر، وأممت في المساجد، وذكرت في الجوامع، واختلفت إلى المدارس، ودعوت في المحافل، وتكلمت في المجالس، وأكلت مع الصوفية الهرائس، ومع الخانقائيين الثرائد، ومع النواتي العصائد، وطردت في الليالي من المساجد، وسحت في البراري، وتهت في الصحارى، وصدقت في الورع زمانا، وأكلت الحرام عيانا، وصحبت عباد جبل لبنان، وخالطت حينا السلطان... وأشرفت مرارا على الغرق، وقطع على قوافلنا الطرق، وخدمت القضاة والكبراء، وخاطبت السلاطين والوزراء»..

ثم يقول بعد سرد لعديد من أنشطته الأخرى: ... «ذكرنا هذا ليعلم الناظر في كتابنا أننا لم نصنفه جزافا، ولارتبناه مجازا... فكم بين من قاسى هذه الأسباب وبين من صنف كتابه في الرفاهية ووضعه على السماع».

والواقع أن استقصاء دراسات الرحالة المسلمين العرب من خلال تراثهم الأثنوجرافي يحتاج إلى عديد من الكتب والدراسات المتخصصة في هذا المجال.

شهادة عالم أمريكي:

لقد دعا هذا الأنثروبولوجي الأمريكي كارلتون. س. كون Carlton. S. Coon أن يقول في بحثه الذي قدمه لمؤتمر برنستون للثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة في سنة ١٩٥٢ مانصه: «إن علم الأجناس البشرية والأنثروبولوجيا» لم يكن بدعا بالنسبة للعرب الذين درسوا التراث الأدبي لأمته، فقد وصف رحالة عربي هو (ابن فضلان) الأسلاف الوثنيين لسكان شمال غرب أوروبا الحاليين، كما أورد رحالة آخر هو «ابن بطوطة» روايات مفصلة عن الأخلاق والعادات للشعوب التي كانت تعيش من «مراكش إلى الصين».

ثم يواصل حديثه قائلا: «ولاشك أن في التراث العربي عشرات من الكتب الأخرى في الوصف الحضاري غير معروفة لدى الغربيين من علماء الإنسان، ويجب أن ينشغل علماء الإنسان من العرب بالبحث عن هذه المخطوطات ونشرها لاباللغة العربية فحسب، ولكن بلغة أوروبية كذلك، فهذه الأخبار ستكون بالغة القيمة، إذ تمكننا من أن نعرف التغيرات التي حدثت منذ كتابتها، وتهدينا إلى الاتجاهات التي علينا أن ننظر إليها لمعرفة التغير المقبل، شأن الملاح الذي يرسم اتجاه سفينته بأن يربط مابين المركز الذي تكون فيه وأي علامة مرت بها».

مواصلة العالم الأمريكي تأكيده على أصالة العلماء المسلمين:

يواصل «كارلتون كون» في بحثه التأكيد على أصالة العلماء المسلمين ودورهم في إنشاء «الأنثروبولوجيا»، هذا التعبير الحديث الذي لم يسمعوا هم به فيقول:

«ولاشك أن العرب سيجدون تحليل المواد الأنثروبولوجية أمرا مألوفا لديهم، فابن خلدون في مقدمته قد حلل البناء الاجتماعي لقبائل الصحراء، والبناء الاجتماعي للمدن تحليلا عميقا، وقد أدرك ابن خلدون مالم يدركه معظم العلماء المتأخرين من أن بين البيئة وطرق المعيشة الإنسانية والبناء الاجتماعي علاقة سببية، ولم يأخذ علماء الغرب في اللحاق بعمل ابن خلدون إلا خلال عشرات السنوات القليلة الماضية. إن علم الإنسان - وهو اسم لم يسمع به ابن خلدون - هو المحصول النهائي للعمل الذي تم في الجامعات القديمة في شمال أفريقيا، وأوروبا الغربية، وأخيرا في أمريكا، لقد كان العرب هم الذين ابتكروا تقسيم العمل بين أنواع الدراسات، مما جعل الجامعات ومابها من أقسام علم الإنسان أمورا ممكنة».

السلام والتسامح والإخاء العالمي أهداف مشتركة يدعو إليها الإسلام وعلم الإنسان:

لعلم أهم أهداف علم الإنسان من دراساته النظرية والحقلية على امتداد رقعة الكرة الأرضية هو التأكيد على أنه مهما اختلفت «الثقافات» وتنوعت فإن أصل الإنسان واحد، وفطرته واحدة، وبنيانه هو هو، وأن ماوهبه الله من قدرات تختلف في إعمار الأرض، واكتشاف سنن الكون، والسيطرة على الطبيعة وتسخيرها، والوصول بقدر ما إلى فهم معالم هذا الكون الفسيح، إنما مرده إلى اختلاف البيئة بمعناها الشامل الواسع ثقافية كانت أم اجتماعية أم جغرافية، ولادخل لذلك في فطرة الله التي فطر الناس عليها فالناس لآدم وآدم من تراب. ولهذا يقول عليه الصلاة والسلام:

"... ألا لافضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى" رواه أحمد بمسنده ٥/٤١١.

إذن، ماالروافد الأساسية للتأصيل الإسلامي لعلم الإنسان؟

هكذا نرى أن التأصيل الإسلامي لعلم الإنسان ينبغي أن يستمد روافده من حقيقة المساواة بين البشر على اختلاف ألوانهم وعقائدهم كما وردت في القرآن الكريم والسنة المطهرة، وفي دراسة القصص القرآني وما يحتوي من عظات وعبر من ناحية، ومن قيم وعادات وتقاليد الأمم التي سبقتنا من خلال سياق مقارن بقيمنا وتقاليدنا المعاصرة من ناحية أخرى، وكذلك في العودة إلى تراث العلماء المسلمين الرحالة الذي أرسوا بجهودهم ورحلاتهم جذور علم الإنسان الذي لم يسمعوا به وكيف كانوا مؤسسين نظريا وميدانيا له على ألا يكون ذلك غاية في ذاته، وإنما وسيلة للتحليل والتقويم في سياق مقارن لجهود علم الإنسان الحديث ومدى ماوصل إليه من تطور، كما ينبغي الإفادة التامة من منهج هذا العلم في الدعوة الإسلامية على أساس من دراسة المدعوين أنفسهم دراسة شاملة متكاملة حتى تكون الدعوة على بينة وبصيرة تؤدي إلى نجاحها التام طبقا لمستجدات العصر واتساع رقعة إعلامه، كما ينبغي العودة في هذا المجال إلى دراسة أهمية كل من الرحلة والهجرة في الإسلام لطلب العلم والتفقه في الدين ودراسة الأقوام وأداء مناسك الحج وكسب العيش والنظر في ملكوت الله، والسعي في مناكب الأرض من كافة أقطارها، وبهذا تكون دراستنا للعلوم وإن استفادت من التطور العلمي العالمي إلا أنها تظل مرتبطة بتراثنا، نابتة من أرضنا، نابعة من ديننا وقيمنا وعاداتنا، هادفة إلى ترسيخ وتدعيم الصالح منها، مقومة للمعوج، هادمة للبالي الدخيل علينا والذي ما أنزل الله بن من سلطان.

والله الموفق ،،،

من إنتاج المؤلف ونشاطه العلمي :

١ – أنثروبولوجيا التربية دراسة نظرية ميدانية فى قبيلة الشيلك بجنوب السودان – الهيئة العامة المصرية للكتاب .

٢ – الأنثروبولوجيا فى الفكر الإسلامى – دار عكاظ بالرياض .

٣ – نحو علم إجتماع إسلامى – دار المطبوعات الجديدة بالأسكندرية .

٤ – بين العلوم الإجتماعية والسلوكية – دار المطبوعات الجديدة بالأسكندرية .

٥ – ملامح الدراسات الأنثروبولوجيا فى تراث المفكرين المسلمين – مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض .

٦ – الثقافة والشخصية الإسلامية – دراسة فى الأنثروبولوجيا النفسية – مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض .

٧ – التنمية بين المفاهيم الإجتماعية والقيم الأخلاقية – مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض .

٨ – هل الدين ظاهرة إجتماعية ؟ دراسة فى الأنثروبولوجيا وعلم الإجتماع الدينى – مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض .

٩ – المنهج الأنثروبولوجيوالدعوة الإسلامية – جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض .

١٠ – علم الإجتماع وتطبيقاته فى مجال الدعوة الإسلامية – جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض .

١١ – الثقافة والشخصية العربية – دراسة فى الأنثروبولوجيا الحضارية – مجلة العصور – دار المريخ – لندن – الرياض – العدد الثانى .

١٢ – علم الإجتماع الإسلامى – الأهداف والخطط ووسائل تحقيقها بالجامعات العربية – إتحاد الجامعات العربية مؤتمر الدراسات الإسلامية – جامعة أم درمان الإسلامية .

١٣ – علم النفس بين المنهج العلم وموقف الإسلام – مؤتمر علم النفس والإسلام – جامعة الملك سعود بالرياض .

١٤ - التأصيل الإسلامى لعلم الإجتماع إلى أين ؟

- ندوة علم الإجتماع المصرى إلى أين ؟ - جامعة الأزهر ١٩٩١ - دار المطبوعات الجديدة .

فى سلسلة الإسلام والعلوم الإنسانية صدر للمؤلف البحوث الآتية وقام بنشرها :

دار المطبوعات الجديدة - الأسكندرية .

١٥ - التأصيل الإسلامى للعلوم والدراسات الإجتماعية .

١٦ - الثقافة والمجتمع الإسلامى .

١٧ - الإيدز وثقافة الغرب - دراسة فى الأنثروبولوچيا الطبية - دراسة إسلامية .

١٨ - وضع كبار السن فى المجتمع الإسلامى .

كما قامت دار المطبوعات الجديدة بعمل سلسلة للمؤلف بعنوان (دراسات أنثروبولوچية صدر منها مايلى :

١٩ - الإبداع والفكر الإجتماع - دراسة أنثوبولوچية .

٢٠ - البناء الإقتصادى لحراج بن قاسم بمدينة الرياض - دراسة أنثوبولوچية .

٢١ - التأصيل الإسلامى لعلم الإنسان .

٢٢ - الأنثروبولوچيا والأدب العربى .

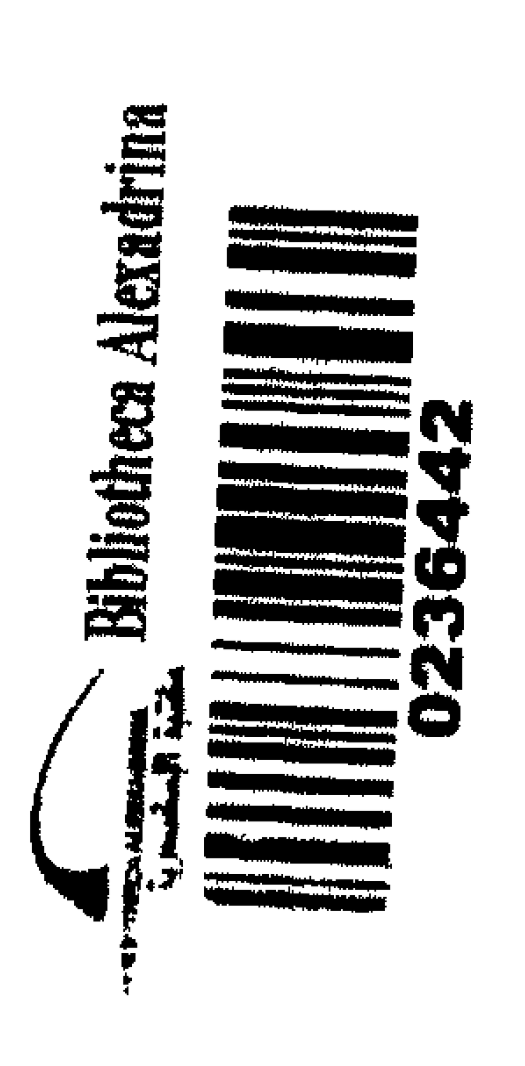
٢٣ - بين الطفولة والكهولة فى المجتمع الإسلامى .

كما قامت دار المطبوعات الجديدة بإصدار مجموعة مقالات وبحوث فى علم النفس ضمن سلسة الإسلام والعلوم الإنسانية للأستاذ **الدكتور / عزت عبد العظيم الطويل - أستاذ علم النفس بكلية الآداب .**

ومن هذه البحوث ما لى :

١ - هموم العمل والعمال دراسة نفسية توافقية .

٢ - الإكتئاب دراسة نفسية قرآنية .


Bibliotheca Alexandrina
0236442